علاقة البلاغة العربية بالنقد العربي القديم- دراسة وصفية نقدية-

الدكتور حبيب عبد الله علي

محاضر سابقا بكلية اللغة العربية

جامعة إفريقيا العالمية- السودان

مستخلص

الحمد لله والصلاة والسّلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، تقوم هذه الدراسة على توضيح العلاقة الوطيدة بين البلاغة والنقد العربي القديم، وهذه الدراسة بحق من المواضع المهمة لارتباطها بقضية البلاغة والنفد التي تمتاز بها اللغة العربية على وجه الخصوص من بين سائر اللغات الأخرى؛ لأن الله سبحانه وتعالى اختار هذه اللغة ورفع قدرها وشأنها، بحيث أنزل بها القرآن الكريم على النبي المختار، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

فهدفت هذه الدراسة تحديدًا إلى بيان العلاقة الوطيدة بين البلاغة والنقد العربي القديم، مع نموذج لبعض مظاهر النقد في العصر القديم، وذلك لما في فهمها من دور كبير يساعد على فهم النصوص الأدبية فهما جيدًا، وكذلك تطوير واستثمار الدرس الأدبي العربي بالشرح والتعليق، ولا يتم ذلك إلا بفهم الأساليب العربية الرائعة الفصيحة، التي تتسم بالاختيار الأمثل للمفردات، والتراكيب التي يتم فيها رعاية القواعد النحوية والصرفية؛ لأن أغلب الباحثين العرب قد تحدّثوا عن الأسلوب، وتناولوه في حقول معرفية لها علاقة بالخطاب وكيفيّة نظمه وصوغه وترتيبه، وخاصّة نظم القرآن الكريم ونظم الشّعر، ونجد في ذلك إشارةً إلى مدى اهتمام العلماء القدامى والباحثين العرب لِجَوْدَةِ الأسلوب، وكفية تطويره نثرًا وشعرًا، وأخيراً ، قائمة المصادر والمراجع التي استخدمها الباحث.

.مفتاح: البلاغة. النقد العربي القديم. العلاقة

مقدمة :

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصّلاة والسّلام على سيدنا محمد خاتم النّبيين وأشرف المرسلين وحبيب ربّ العالمين، أنزل الله عليه القرآن بلسان عربي مبين، هدى للنّاس وبيّنات من الهدى والفرقان.

وبعد فإنّ الدّراسة في رحاب علوم اللّغة العربية وبلاغتها، ومعرفة جانبٍ من أسرارها وخصائصها لهي من الدّراسات الشّريفة والكريمة، والتي ينبغي أن يُحرّضَ عليها طلبة العلم، ويَحرصَ عليها العلماء كذلك، ولقد اهتمّ بهذا الجانب علماء أجلاء وهبوا جُلّ وقتهم لخدمة العربية وبلاغتها، وخدمة كتاب الله العزيز، وسطروا في ذلك أعظم الآثار وأجلها، وتركوا لنا أسفارًا عظيمة في مجال علم اللغة العربية وبلاغتها وأسلوبها، فأكرم بهم من علماء عظماء، وأكرم بمن تشبّه بهم.

وإنّ ما بي من حبّ في دراسة اللغة العربية وبلاغتها وأساليبها الرائعة ما دفعني إلى بذل الجهد للتدبر وبذل النّفيس، لأُقدّم لتراثنا العربي المبارك ما يسعه جهدي، فكانت هذه الدّراسة التي أهتديتُ إليها والتي بعنوان:(علاقة البلاغة العربية بالنقد العربي القديم- دراسة وصفية نقدية)؛ لإبراز العلاقة الوطيدة بين البلاغة العربية والنقد العربي القديم، والتي من ضمنها الشّراكة في الهدف والمقصود، إذ إن البلاغة عند القدماء هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهذه العبارة لا تختلف عن كلمة الموقف في الدّراسات النقدية، أي: الموقف التواصلي الذي يخاطب فيه

المتكلّمُ الملتقي، مُريدًا من خطابه تَحقيقَ قَصْدٍ مُعَيَّنٍ، كما يُقَالُ: لكل مقام مقال، فيراعي القائلُ هذا الموقف أو المقام، حتى يستطيعَ توصيلَ المعنَى إلى سامعيه بطريقة مقنعة ومؤثرة تحقق الفائدة للمتلقي.

والله أسأل السّداد والتّوفيق والنّجاح والبركة، وأن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

علاقة البلاغة العربية بالنقد العربي القديم:

نَتَوَصَّلْ إلى فهم العلاقة والصِّلة بين البلاغة والنّقد العربي القديم عندما نتعرَّف مفهوم وغرض كُلٍّ من العِلْمَيْنِ، وهذا الذي يُسَهِّلُ لنا تحقيق ما يتميَّزُ به كلّ واحد منهما من ميزة وخصائص؛ لأنّ الأصل بين العلوم المتقاربة والمتكاملة التَّعَاوُنُ والتَّأَثُّرُ والتَّأثير، وهذا الذي يسبب ويشكّل علاقة محدّدَة وخصائص ظاهرة، تؤدّي إلى أن تتحكَّمَ فيها بَعْضُ المؤثّرات الدّاخليّة والخارجيّة وصولاً بذلك إلى فهم الفروق بين العِلْمَيْنِ، وإنّ الكلام عن الأصل الذي يجمع البلاغة بالنّقد العربي القديم يَتَمَثَّلُ في الطّاقة الجماليَّة التي تُفْرِزُهَا البلاغة العربية، ثمّ يَتِمُّ اعتماد هذه الطّاقة في الأحكام النَّقْدِيَّة.

فإذًا البلاغة تُعْتَبَرُ عناصر جماليَّةٌ، وأمَّا النَّقْدُ بصورة عامَّةٍ يُعْتَبَرُ أحكام تُسْتَنَدُ إلى هذه العناصر الجماليَّةِ، ويظهر لنا ذلك في تعريف صاحب كتاب المفتاح في علوم البلاغة حيث قال:" البلاغة هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدًا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها"[1].

وبمفهوم آخر قريب من هذا:" إنّ البلاغة هي العلم بالقواعد التي بها يُعرف أداءُ جميع التراكيب حقّها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها، وإيداع المحسنات بلا كلفة مع فصاحة الكلام"[2].

من خلال ما سبق من البيان يظهر لنا ضرورة سلامة التركيب صرفيًّا ونحويًّا، في جميع ما يريد المتكلّم إيصالَه من المعاني والبيان إلى السّامع أو المتلقّي؛ لأنّ مفهوم البلاغة العربية يتناسب مع نظرية النّظم التي تكلم عنها العالم عبد القاهر الجرجاني

حيث قال:" واعلم أن ليس النّظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النّحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرّسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها، وذلك أنّا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه"[3].

كما أشار إلى هذا الهدف أحد الباحثين حيث قال:" والحديث عن الأصول التي تجمع البلاغة بالنّقد العربي القديم إنّما هو حديث عن الحبل السُّرِّي الدّقيق الّذي يصل البلاغة بالنّقد، أمّا سبب وجود هذا الحبل وعِلّتِهِ فهو الطّاقة الجماليَّة التي تُفْرِزُهَا البلاغة العربية، ثمّ اعتماد أسباب هذه الطّاقة في الأحكام النَّقدية، فالبلاغة عناصر

1- أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1987م، ج1، ص415.

2- محمد الطاهر بن عاشور، موجز البلاغة، المكتبة العلمية، تونوس، الطبعة الأولى، 1932م، ج1، ص5.

3- أبوبكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، دلائل الإعجاز، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1986م، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، ج1، ص25.

جماليَّة، والنَّقد بوجه عام أحكام تُسْتَنَدُ إلى هذه العناصر"[1]، فهنا يُلاحظ التقارب والصِّلة بين مضمون النظم الذي يعتبر وسيلة إلى فهم الطَّاقةِ الجمالية التي تُفْرِزُهَا البلاغة العربية وبين العمل الفنِّي للنَّقدِ الأدبي، بحيث يأتي النَّقدُ بعد حصول تلك الطَّاقة الجمالية في النص للحكم عليها جودة أو رداءة.

أما مفهوم النَّقد لغة فهو كما جاء في المعجم الوسيط" نَقَدَ الشَّيءَ نقدًا، نقره ليختبره أو ليميز جيدَه من رَدِيئِهِ، وَنقَدَ الدراهمَ والدنانيرَ وغيرهما نقدًا وتنقادًا، ميَّزَ جيدَها من رديئها، ويقال نقد النثرَ ونقدَ الشعرَ، أظهر ما فيهما من عيب أو حسن[2]، فَشُبِّهَ النَّقدُ بالعملية التَّحْلِيلِية والتَّمييزية، وأمَّا في الاصطلاح يعني النَّقد دراسة الأعمال الأدبية وتفسيرها وتحليلها وموازنتها بغيرها المشابه لها، والكشف عمَّا فيها من جوانب القوَّة والضَّعف والجمال والقبح، ثمَّ الحكم عليها ببيان قيمتها ودرجتها، وفيه يُعْطَى التقدير الصحيح لِأَيِّ أثر فَنِّي وبيان قيمته في ذاته، ودرجته بالنِّسبة إلى ما سواه، وبالنَّقد يزدهر الأدب؛ إذ إنَّ النَّاقد هو مِرْآة ساطعة تُعَكِّسُ ما في النَّصِّ من جمالٍ أو نقصٍ دون تزوير ولا تزييف، فيمكن القول بأنَّ أهمية النَّقد الأدبي تشمل في الدرجة الأُوْلَى الحِفَاظَ على جودة الأدب من جهة، وتوجيهَ الأُدَبَاءِ لِلرُّقْيِ بِفَنِّهِمْ نَحْوَ الجَوْدَةِ والكمال والفائدة من جهةٍ أخرى.

فبناء على ما سبق يمكن الإشارة إلى أنَّ النَّقد العربي القديم نشأ قبل البلاغة، وأنَّه أَعَمُّ وأشمل منها، وأنَّهُ وُلِدَ مع الشِّعْر؛ لأنَّ أوَّلَ الملاحظات النَّقدية التي عُرِفَ في الموروث العربي القديم بدأت في العصر الجاهلي، وهي عبارة عن ملحوظات نقدية عامة تتم على ذوق فطري، ثمَّ تطوَّر النَّقد العربي بعد ذلك بسبب مجهودات بعض العلماء اللُّغويين والنَّحويين والرواة، إلى أن بلغ ذروته في القرن الرابع الهجري على يد ابن طباطبا (ت 322هـ) حين وضع كتابه(عيار الشعر) وقدامة بن جعفر(ت 377هـ) حين وضع كتابه(نقد الشعر) والآمدي(ت 371هـ) حين وضع كتابه(الموازنة بين الطائيين) والقاضي الجرجاني(ت 392هـ) حين وضع كتابه(الوساطة بين المتنبي وأبي تمام).

فيلخص مما تقدَّمَ أنَّ البلاغة العربية فنون جماليَّة وأساليب بيانية، وأمَّا النَّقد فهو عملية لِضَبْطِ وتقدير لهذه الفنون والأساليب، بحيث يتمكَّنُ النَّاقِدُ بها تمييز الجيِّدَ من الرَّدِئ، والحسن من القبيح، ويلاحظ هنا أمرٌ مهمٌ، وهو أنَّ القيم الجمالية في النَّص الشِّعْرِي لا يستطيع أحد أن يعرف مستواها ويضبطها إلا الخبير المُتمرِّسُ بها؛ لأنَّه لا يستطيع أحد أن يعرف القيمة الجمالية للشئ إلاَّ إن امتلك أدواتها وَتَمَرَّسَ باستعمالها، فالنَّاقد لا يستطيع إظهار رُؤْيَةٍ تقويمية صحيحة لنصِّ الشعر إن لم يكن خبيرًا بمواطن الجمال عالمًا بأسرارها، من هنا تأتي ضرورة وجود الذَّوْقِ الفنِّي أو الجمالي للنَّاقد، وهو كما قيل:" قُدْرَةُ الإنسان على التَّمييز بين الجميل والقبيح بالحوَّاس والعقل"[3].

وأما البلاغة فقد كانت مُسْتَقِرَّةً في جِبِلَّةِ العرب، وكانت مظاهرها واضحة في كلامهم من شعر ونثر وخطابة وأمثال، إلاَّ أنَّها لم تأخُذْ فنونها وشكلها الاصطلاحي المعروف حتَّى نهاية القرن الثَّالث الهجري على يد ابن المعتز(ت 296هـ) حين وضع كتابه(البديع)، ثمَّ تطوَّرت بعد ذلك البلاغة، وظهرت الدِّراسات القرآنية التي فتحت باب البحث البلاغي على مِصْرَاعَيْهِ، فأفادت البلاغة العربية من ذلك أَيَّمَا فائدة، وهذا يدلُّ على أنَّ البلاغة العربية كان لها علاقة أصلية متينة بالعلوم اللغة الأخرى منذ القدم، مثل: علم التَّفسير وعلم إعجاز القرآن الكريم، والنَّحو والصَّرف والنَّقد العربي القديم.

1- الأسود حسين، أصول العلاقة بين البلاغة والنقد القديم حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق- سوريا، مجلد81، ج1، السنة 2007م، ص115.

2- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مادة: نقد.

3- نبيل رشاد سعيد، مدخل إلى علم الجمال، دار الهادي- بيروت، الطبعة الأولى، 1422ه- 2001م، ج1، ص23.

مظاهر الفرق بين البلاغة والنَّقد العربي القديم:

1-البلاغة تغلب فيها النَّاحية الفنّية، بمعنى أنَّها تَمُدُّ المتكلم بكل القواعد والعناصر التي تساعد على جودة التعبير عن أفكاره، أمَّا النَّقد فيوضح النَّظْريات والأصول التي تُقَاسُ بها قيمة التعبير من النَّاحية الجمالية.

2-تُعْنِي البلاغة أكثر ما تعني بقوالب الكلام وصوره، فهي تفترض أنَّ المعاني حاصلة في ذهن الكاتب، ثُمَّ تُعَلِّمُهُ كيف يصوغها ويُخرجها في قوالب بليغة من الكلام، أمَّا النَّقد فيتعلَّقُ بما وراء قوالب الكلام وأشكاله وصوره، إنَّهُ يتعلَّقُ بالعناصر الأساسية التي هي أدوات النَّاقد التي يستطيع بها أن يُقَدِّرَ العمل الأدبي، ومن ثَمَّ يَحْكُم لَهُ أو عليه بالحُسْنِ أو القُبْحِ.

3-تُعْنِي البلاغة بالنَّظْمِ وتأليف الكلام وعناصر الأسلوب، أمَّا النَّقد فَيُعْنِي بعناصر الكلام ومُقَوِّمَات التّعبير والأسلوب، من فِكْرٍ وخَيَالٍ وغير ذلك، مما لا يمت إلى الشَّكْلِ بصلة، كذلك يُعْنِي بمدى نجاح نظم الكلام وتأليفه في تأدية المعنى.

4-يخوض النَّقدُ في الشُّعَراءِ والكُتَّابِ وفي حياتهم، وُيُحَلِّلْ آثارهم الأدبية وكُلَّ ما يتصل بها من عناصرٍ جماليَّةٍ أو ثقافيةٍ أو نفسيّةٍ، ويبحث في خصائص كُلِّ شاعرٍ وسِمَات شِعْرِهِ، ويتصدَّى لِذِكْرِ مُمَيِّزَاتِ العصور الأدبيَّةِ ومُمَيِّزَاتِ الشُّعَراءِ والكُتَّابِ، كُلُّ ذلك ليس مِنِ اخْتِصَاصِ البلاغة، وإنَّما هو موضوع فَنٍّ آخر هو النَّقد الأدبي.

إنَّ العلاقة بين النَّقد والبلاغة في الأدب العربي القديم أثارت ولا زالت الكثير من التساؤلات والنّقاشات، وذلك بسبب هَيْمَنَةِ الجانب البلاغي على النَّقد القديم، فالنَّقد كان نقدًا بلاغيًا، والبلاغة كانت بلاغةً نقديةً، وهذا في الغالب الأعم، ومعنى ذلك اعتماد النَّقد على مُقَوِّلَاتٍ بلاغيةٍ، واعتماد البلاغة على الحِسِّ النَّقدي، فالنَّقد الأدبي القديم كما قال أحد الباحثين هو:" أبو البلاغة العربية في حَجره نشأت وفي رِحَابِهِ درجت، فهي تُنْسَبُ إليه وتنبثق عنه، ولهذا تَوَثَّقَتْ الصِّلَةُ بينهما"[1].

والدّارسُ لبدايات النَّقد والبلاغة وخاصَّةً في قرون الأربعة الأولى، يَتَبَيَّنَ له مدى امتزاجهما وارتباطهما الوثيق في طور النَّشأة والتَّكوين، بل يقف على وِحْدَةِ هدفهما في نقطة الانطلاق ومساحة العمل، وهذا الامتزاج جعل من العسير الفصل بينهما في هذه المرحلة خاصَّةً، فقد تداخلت المباحث البلاغية والنَّقدية، تداخلاً يصعب معه وضعُ الفواصل والحدود بما يُمَيِّزُ كُلَّ عِلْمٍ عن الآخر قبل مرحلة التقعيد، "ولعل من أسباب ذلك أن النَّقد لَمْ يظهر عند ظُهُورِهِ عِلْمًا مُسْتَقِلاً، ولم تَظْهَر البلاغة عند ظُهُورِهَا عِلْمًا مستقلا بنفسه، وَرُبَّمَا لم يظهر غيرهما مستقلا بنفسه أيضًا، وذلك يعود إلى طبيعة التأليف في العلوم في المرحلة الأولى، التي تَمَّ فيها تثبيت المَعَالِمِ الأوَّلِيَّةِ لِكُلِّ عِلْمٍ"[2].

وَيُؤَكِّدُ على ذلك أحمد مطلوب حيث قال:" ومهما قيل فإنَّ النقد العربي مرتبط بالبلاغة ارتباطًا وثيقًا؛ لأنها أَهَمَّ أركانه؛ ولأنها أهم سمات اللغة العربية التي حَفَلَتْ بِكُلِّ فَنٍّ بَدِيعٍ"[3].

هذه الأدلة وغيرها تؤكد لنا أن الأصل بين العلوم المتقاربة والمتكاملة التَّعَاوُنُ والتَّأَثُّرُ والتَّأثير فيما بينها، وخاصَّةً في مرحلة النَّشأة والتَّكوين، وذلك لقرب واتِّحَادِ هدفهما قبل استقلال كل عِلْمٍ بقوانين وأهدافٍ أخرى

1- مصطفى عبد الرحمن إبراهيم، في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة، القاهرة، 1998م، ج1، ص12.

2- محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد (المصطلح والنشأة والتجديد)، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2006م، ج1، ص200.

3- أحمد مطلوب، النقد البلاغي، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد38، ج2 و3، 1987م، ص200 و201.

مُعَيَّنَةٍ تُخَصِّصُهُ عن غيره، وغالبًا يحصل هذا التفريق بين العلوم المتقاربة والمتكاملة تدريجيًّا، حسب التطور والازدهار الذي يشهده كل جانب منهما عبر العصور، كما حصل بين علم البلاغة والنقد العربي القديم، خلال مرحلة النَّشأة والتَّكوين، وحتى مرحلة التقعيد التي بعدها، استقلت البلاغة بنفسها، كعلم له خصائصه التي تمييزه عن النقد العربي القديم.

بعض صور النقد العربي في العصر القديم :

في أواخر العصر الجاهلي كثرت أسواق العرب التي يجتمع فيها الناس من قبائل عدّة، وكثرت المجالس الأدبية التي يتذاكرون فيها الشّعر، وكثر تلاقي الشُّعراء بأفنية الملوك في الحِيرَةِ وَغَسَّان؛ فجعل بعضهم ينقد بعضًا، وهذه الأحاديث والأحكام والمآخذ هي نواة النَّقدِ العربي الأول نواة النّقد التي عُرِفَتْ، والتي قِيلَتْ في شعرٍ معروفٍ، من ذلك ما نجده في عكاظ عند النابغة الذُبياني، وفي يثرب حين دخلها النَّابغة فأسمَّوْه غناء ما كان في شعره من إقواءٍ؛ وفي مكة حين أثنت قريش على شعر علقمة الفحل، ومن ذلك ما يُعْزى إلى طرفة من أنَّهُ عاب على المتلمّسِ نعته البعير بنعوت النِّيَاقِ ؛ وما أخذه الناس على المهلهل بن ربيعة من أنه كان يُبَالِغُ في القول ويَتَكَثَّر.

كانت سوق عكاظ سوقًا تجارية، يباع ويُشترى طريف الأشياء والحاجي منها، وكان يأتيها العرب لذلك من كل فَجٍّ حتى من الحِيرَة، وكانت مجمعًا لقبائل العرب يفدون عليها للصُّلح أو التَّعاهد أو التَّفاخر، أو أداء ما على الأتباع للسَّادة من إتَاوَاتٍ؛ وكانت مَوْعِدًا للخطباءِ والدُّعَاةِ، وكانت فوق ذلك كُلِّه بيئة من بيئات النَّقد الأدبي، يلتقي الشُّعَرَاءُ فيها كل عامٍ.

أشار إلى هذه النُّقطة وما يجري فيها من العملية الأدبية والنقدية طه أحمد إبراهيم حيث قال:" وَذَائِعٌ مُسْتَفِيضٌ في كتب الأدب أنَّ النَّابغة الذُّبيَانِي كانت تُضْرَبُ له فيها قُبَّةٌ حمراءٌ من جلدٍ، فيأتيه الشُّعراء فيُعْرِضون عليه أشعارَهم، وذَائِعٌ مستفيضٌ في كتب الأدب مشهد من تلك المشاهد التي كانت بين النَّابغة والشُّعراء في عكاظ؛ أنشده الأعشى مرّةً ، ثم أنشده حَسَّانُ بن ثابت، ثم شُعَرَاءٌ من بعده، ثم الخنساء أنشدته قصيدتها في رثاء أخيها صخرٍ التي منها:

وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ **** كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ[1]

فأعجب بالقصيدة، وقال لها لولا أنَّ أبالبصير- يعني الأعشى- أنشدني لقلت: إنَّكِ أشعر الجِنِّ والإنس؛ فالأعشى إذَنْ أشعر الذين أنشدوا النّابغة، والخنساء تَلِيهِ منزلةً وجودةَ شِعْرٍ.

ولقد عاب العرب على النَّابغة الذبياني وبشر بن أبي حازم الإقواء الذي في شعرهما، أي اختلاف حركة الرَّوِي في القصيدة، ولم يستطيع أحد أن يصارح النَّابغة بهذا العيب حتى دخل يثرب مرّةً ، فأسمعوه غناءَ قوله:

أَمِنْ آلِ مَيَّةَ رَائِحٌ أو مغتدي **** عجلانَ، ذا زادٍ، وغيرَ مزودِ

زَعَمَ البَوَارِحُ أنّ رِحْلَتَنا غَدَاً **** وبذاك حدَّثَنَا الغداف الأسودُ[2]

فَفَطِنَ فَلَمْ يَعُدْ إلى ذلك.

1- الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، الرياحية السلمية، من بني سليم، من قيس عيلان، من مضر، ديوان الخنساء، شَرَحَ معانيه ومفرداته- حَمْدُو طَمَّاسْ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، الطبعة الثانية، 2004م، ج1، ص46.

2- زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع بن مرّة بن عوف بن سعد، الذبياني الغطفاني (605 م)، ديوان النابغة الذبياني، (بدون طبعة)، ج1، ص23.

وأمّا بِشْرِ بن أبي حازم فقد نبّهَهُ أخوه سواده إلى ذلك العيب، والإقواء أثر من آثار طُفُولة الشّعر، ودليل على أنّ العربي لم يهتد مَرّةً واحدة إلى وِحْدَةِ حركة الرّوِي، فَذَمّهُ نوع من البَصَرِ بالشّعرِ، نوع من النّقد قائم على وقعِ الشّعر في السّمْعِ، وعلى الانسجام والتّماثل في القافية.

ويقول حماد الرّاوية:" إنّ العرب كانت تُعْرِضُ شعرها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولاً، وما ردّوه منها كان مردودًا؛ فقدم عليهم علقمة ابن عَبَدة، فأنشدهم قصيدته التي يقول فيها:

هل ما علمتَ وما استُودِعتَ مكتومُ **** أم حبْلُها إذ نأتْكَ اليوم مصرومُ

فقالوا: هذه سمط الدّهْر، ثمّ عاد إليهم العام المُقْبِل فأنشدهم:

طَحَا بكَ قَلبٌ في الحِسان طروبُ **** بُعيْد الشّبابِ عصرَ حانَ مشيبُ [1]

فقالوا له: هتان سمطا الدهر[2]، وسمع طرفة بن العبد المتلمس ينشد بيته:

وقد أتناس الهَمّ عند احتضاره **** بناج عليه الصّيْعَرِيّةُ مُكْدَمِ [3]

فقال له طرفة وهو غلام: استنوق الجمل، أي وصفت الجمل بوصف الناقة وخَلَطت، فذهبت كلمته مثلا، فضحك القوم، فغضب المتلمس ونظر إلى لسان طرفة وقال: ويل لهذا من هذا؛ يعني رأسه من لسانه.

فقد عاب طرفة وهو غلام على المسيب بن علس هذا الوصف، وهو أنّهُ استنوق الجمل بجعل الصّيْعَرِيّةِ سمة له دون النّاقة، وفي ذلك إشارة تدل على الذوق النّقدي من طرفة، وبصره بمعاني الألفاظ ومواضع استعمالها.

ويروى عن أبي عمرو الشيباني الكوفي، أنّ عمرو بن الحارث الأعرج الغساني فَضّلَ حسّانًا على النّابغة وعلى علقمة بن عَبَدَة، وكانا حاضِرَيْنِ معه، وأثْنَى على لاَمِيّةِ حسان التي فيها:

لله دَرُّ عِصَابَة نادَمْتُهُمْ **** يوْماً بجِلّقَ في الزّمان الأوّلِ [4]

ودعاها البتّارة التي بترت المدائح.

وكثيرًا ما كانت العرب تُلَقّبُ الشّعَرَاءَ وتُلَقّبُ القَصَائِدَة تَنْوِيهًا بِهَا وإعظامًا لها، وإيمانًا بأنّها جَيّدَة فريدة؛ لَقّبُوا النّمِرَ بن تَوْلَب بالكَيّسِ لِحُسْنِ شِعْرِهِ، وسَمّوا طُفَيْلَ الغنوي: طُفَيْلَ الخيل لِشِدّةِ وصفه إيّاهَا، وقد قرأ أبو نصرٍ صاحبُ الأصمعي شِعْرَ سُوَيْدِ بن أبي كاهل على الأصمعي، فلما قرأ قصيدته:

بَسطَتْ رابعةُ الحبلَ لنا **** فوصَلْنا الحبلَ منها ما اتّسعْ [5]

فَضّلَهَا الأصمعي وقال:" كانت العربُ تَفْضُلُهَا وتقدّمُها، وتعُدُّهَا من حِكَمِهَا، ثم قال الأصمعي: حدثني عيسى بن عمر: أنها كانت في الجاهلية تُسَمّى: اليَتِيمَةُ، لما اشتملت عليه من الأمثال.

1- علقمة الفحل، علقمة بن عبدة بن النعمان بن ناشرة بن قيس، شاعر جاهلي من بني تميم، ديوان علقمة الفحل، (بدون طبعة) ج1، ص5.

2- طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1937م، ج1، ص12." والمُسَمّطُ من القصائد: ما يؤتى فيه بأشطار مقفاة بقافية، ثم يؤتى بعدها بشطر مقفى بقافية مخالفة، ويستمر على هذا النهج، مع التزام القافية المخالفة في القصيدة حتى تنتهي"، ينظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مادة: باب السين.

3- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ج24، ص245.

4- حسان بن ثابت الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، شَرَحَهُ وَقَدّمَ لَه الأستاذ: عبد أ. علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1994م، ج1، ص184.

5- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج13، ص115.

هذه الشواهد تدل على وجود صُوَرٍ من صورة النّقد الأدبي في العصر الجاهلي، على أنّ هناك ما لَعَلَّهُ أعمق في ذلك الشّواهد، وأبلغ في الدّلالة على وجود هذا النّقد، كما نبه على ذلك أحد الباحثين حيث قال:" فقد نستطيع أن نقول: إنّ الشّعْرَ في أواخر العصر الجاهلي كاد يكون فَنًّا يُدْرَسُ ويُتَلَقّى، وتوجد فيه مذاهب أدبية مختلفة، كاد يكون فَنًّا في يُسْرٍ وفي رِفْقٍ، وفي معنى غير الذي نفهمه من كلمة الفَنّ عند المحدثين، فمن الشُّعَرَاءِ الجاهليّين من كان له أساتذة ومرشدون يأخذ عنهم رسوم الشّعْرِ، ويتعلّمُ بعض أصوله، وفي هذا التّلَقّي شيء من الهداية والتوجيه إلى المثل الأعلى، فزهير بن أبي سلمى كان متّصِلاً ببشامة بن القدير، وكان لهذا الاتصال أثره الواضح في شعر زهير من الأناة والقصد، حتى لقد صرّح بشامة بأن الشّاعرَ الحكيم مدين له بشِعْرِهِ وأدبه وحكمته، وحتى قال وقد سأله زهير أن يَقْسِمَ له من ماله- حسبك شِعْرِي وَرِثْتَهُ عَنّي، وليس لهذا الإرث الأدبي من معنى إلاّ أن بشامة بَثّ في زهير رُوحَهُ، وتَعَهَّدَهُ في عهد النُّشُوءِ والطَّلَبِ، وَقَوَّمَ من عِوَجِ شِعْرِهِ، ومضى به في سبيل الإجادة والإتقان"[1].

وَظَاهِرٌ أَنَّ هذا النّقد النّاشِيء الذي يُنْقَدُ أدبًا حديث العهد بالحياة، كان يتجه إلى الصّياغة والمعاني، ويعرض لهما من ناحية الصّحَةِ ومن ناحية الصّقَلِ والإنسجام، كما تَوحِي به السّلِيقَةُ العربية.

كان الشّعْرُ عند نقدته من الجاهليين صِيَاغَةً وفِكْرَةً، سواء كان نظمًا مُحْكَمًا أو غير مُحْكَمٍ، ومَعْنًى مقبولاً أو غير مقبولٍ، فمعنى المُتلمّسُ فاسد؛ لأنه أَسْنَدَ صفة لِغَير ما تُسْنَد له، ومعاني المهلهل التي غالى فيها فاسدة؛ لأنّها غير معقولة، فالصّياغة والمعاني هي ما يُنْقَدُ في الشّعْرِ الجاهلي، وهي أهم ما يتصدّى له النقد الأدبي في العصور الأخرى؛ بل إنّ الشّعراء أنفسهم حين كانوا يمتدحون بأشعارهم لايجدون ما يصفونها به إلاّ جَوْدَةَ السَّبْكِ وقُوَّةَ المعنى، فإن لم يتعرّض الجاهلي في النقد للشّعْرِ تَعَرّضَ للشّاعر، فآثَرَهُ على غيره، أو وازنه بغيره من الشُّعَرَاءِ، فقد وازن النابغة في نفسه بين الذين أنشدُوهُ؛ فقَدَّمَ الأعشى عليهم جميعًا، وَثَنّى بالخنساء، وعمرو بن الحارث الغَسّانِي قَدَّمَ حَسّانًا على النّابغة وعلقمة.

هذان الميدانان اللذان جَالَ فيهما النقد جَولاَتٍ خفيفة في العصر الجاهلي، الحكم على الشعر والتنويه بمكانة الشُّعَرَاءِ، فأمّا غير ذلك من البحث في طريقة الشّاعِرِ أو مذهبه الأدبي، أو صلة شعره بالحياة الاجتماعية، فذلك ما لم يعرفه العصر الجاهلي، فما كان النّقد الجاهلي أكثر من مآخذٍ يَفْطِنُ إليها الشُّعَرَاءُ في الشعر، وما كان أكثر من ملحوظات يلحظها بعضهم على بعضٍ، وما كان من أَصْلٍ إلاّ سليقتهم وما طُبِعُوا عليه.

وأمّا صورة النّقد الأدبي عند الأدباء في عصر صدر الإسلام فقد كان عصر البعثة حافلاً بالشّعرِ فيّاضًا به، وإن ضَعُفَ في بعض نواحيه؛ فالخصومة بين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من ناحية وبين قريش والعرب من ناحية أخرى كانت عنيفةً حَادّةً، لم تقتصر على السّيف والسّنان، بل امتدّتْ إلى البيان والشّعر، وإلى المناظرات والجدل، وإلى المناقضات بين شُعَرَاء المدينة وشُعَرَاء مكة، وغير مكة من الذين خاصموا الإسلام وألَبُّوا العرب عليه، كان شعراء قريش ومن وَالاَهُمْ يهجون النبي عليه السلام وأصحابه، وكان شُعَرَاءُ الأنصار يناقضون هذا الهجاء، ولعل تلك الرّوح هي التي أنهضت هذا الفَنّ في القول، فازدهر في العصر الأموي ازدهارًا تامًّا، هذه المناقضات بين مكة والمدينة كانت تدعو إلى النّقد وإلى الحُكْمِ، وإلى الإقرار والإذعان، وكان العرب يُقَدّرُونَ هذا التهاجي، ويُؤْمِنُونَ بما فيه من لَذَعٍ وإيلامٍ.

1- طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، ج1، ص15.

يقول طه أحمد إبراهيم بخصوص هذه النقطة:" كانت قريش تجزع كل الجزع من هجاء حَسَّان ولا تبالي بشعر ابن رَوَاحَة، وكان ذلك قبل أن تسلم، فلما أسلمت رأت في الشِّعْرَين رأيًا آخر، فقد كان حسان يطعن في أحسابهم، ويرميهم بالهَنَاتِ التي تنال من العِزَّةِ الجاهلية، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر ثم أسلموا، وكان شعر ابن رواحة هو الذي يَحُزُّ قلوبهم حَزًّا، فهم إذن كانوا يرون حَسَّانَ أعظم الشُّعَرَاء الخصوم، ويرون معانيه أَحَدَّ وآلَمَ من معاني أَيِّ أنصاري آخر، وهم يرون الهجاء المقذع المُرّ ما تَعَرَّضَ للحُرم والأنساب، لا ما تعرض للعقيدة والدين"[1].

ومن جهة أخرى كان المهاجرون والأنصار يَعُدُّون حَسَّانًا الشاعر الذي يحمي أعراض المسلمين، يبعثون في طلبه حين تَفِدُ الوفود، ويفزعون إليه حين تأتيهم القوارص؛ فيُبَلِّغ من حاجتهم ما لا يُبَلِّغُه صاحباه، والكلام كثير في أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لَمَّا قَدِمَ المدينة تناولته قريش بالهجاء، وهجوا الأنصار معه، وأنَّ عبد الله بن رواحة رَدَّ عليهم فلم يصنع شيئًا، وأنَّ كعب بن مالك لم يَشْفِ النَّفس، وإنَّما الذي صنع وشفى، وَصَبَّ على قريش من لسانه شآبيب شَرٍّ هو حَسَّانُ، والكلام كثير في استماع النبي صلى الله عليه لِحَسَّان، وفي إيثار النبي عليه السلام لِحَسَّان، وفي أنَّ المسلمين كانوا يعتمدون اعتمادًا حقيقيًّا على حَسَّانٍ في هذا الضرب من النَضَال؛ لِمَ ذلك؟؛ لأنَّهم كانوا يرون المَلَكَةَ الشِّعْرِيَّةِ في حَسَّان أنضج منها فيما سواه؛ لأنهم كانوا يرون معانيه من الأسلحة الماضية التي تَجْزِعُ منها قريش، وهنا رُوحُ النَّقد ظاهرة واضحة في مكة والمدينة، فَحَسَّانُ بن ثابت رضي الله عنه كان أعظم شُعَرَاء الحلبتين عند قريش والمسلمين، في السنوات العشر التي أقامها النبي صلى الله عليه وسلم في دار الهجرة.

وإضافة إلى ماسبق فقد أعجب النبي صلى الله عليه وسلم بشعر النابغة الجعدي الذي قال فيها:

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجدُنا وجدودُنا **** وإنا لنَبْغِي فوقَ ذلك مَظْهَرَا

فقال النبي عليه السلام:" فأين المظهر يا أبا ليلى" فقلت الجنة، فقال:" قل إن شاء الله " فقلت إن شاء الله، ثم قال البيتين التاليَيْنِ :

ولا خَيْرَ في حِلْم إذا لم يكن له **** بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَه أن يُكدرَا

ولا خيرَ في جهلٍ إذا لم يكن له **** حَليمٌ إذا ما أَوْرَدَ الأمرَ أَصْدَرَا[2]

فقال النبي عليه السلام:" أَجَدْتَ لاَ يُفْضَضُ اللهُ فَاكَ " قال يعلى بن الأشدق العقيلي: فلقد رأيته وقد أتت عليه مائة سنة أو نحوها وَمَا انفَضَّ مِن فِيهِ سِنٌّ، وبلغ من استحسانه" لبانت سُعَادُ" أن صَفَحَ عن كعب بن زُهَيرٍ وأعطاه بردته، وقد رُوِيَ عنه عليه السلام قوله:" إن من البيان لسحرًا، وإن من الشعر لحكمة، أو قال: حكما" [3]، وأنه عليه السلام أمر حسان بن ثابت وعبد الله بن رَوَاحة وكعب بن مالك بهجاء قريش، وقال لحسان:" اهج قريشًا، فإنه أَشَدّ عليها من رشْقِ النَّبْل" فقالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

1- طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، ج1، ص26.

2- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج5، ص12.

3- أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، لباب الآداب، تحقيق: أحمد حسن لبج، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1417هـ -1997م، ج1، ص133.

يقول لحسان:" إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله، وقالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" هجاهم حسان فشفى واشتفى"[1] وذلك بقصيدته التي قال فيها:

هجوت محمداً فأجبت عنه **** وعند الله في ذاك الجزاء

أتَهْجُوهُ، وَلَسْتَ لَهُ بكُفْءٍ **** فَشَرُّكُما لِخَيْرِكُمَا الفِداءُ

هجوت مباركاً براً حنيفاً **** أمين الله شيمته الوفاء

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ **** ويمدحهُ، وينصرهُ سواءُ

فإن أبي ووالده وعرضي **** لعرض محمد منكم وقاء[2]

يشير البيان السابق إلى أن النقد الأدبي ظَلَّ مستمرًا في عهد البعثة الإسلامية، وأنَّ العرب لم يَكُفُّوا عن النَّظَرِ في الشِّعْرِ والمُفَاضَلَةِ بين الشُّعَرَاءِ، وقد رأينا إقرار قريش والأنصار لِحَسَّان، ولمَّا رَدَّ حسان على الزِّبْرِقَان بن بدرٍ شاعر وفد تميم، قال الأقرع بن حابس في النبي عليه

السلام:" والله لَشَاعِرُهُ أَشْعَر من شَاعِرِنَا، وَلَخَطِيبُه أَخْطَب"[3]. هذه الأدلة تشير إلى أَنَّ هذا النَّقَدَ لا يزال فِطْرِيًّا، مبنيًّا على سليقتهم و ما طُبِعُوا عليه من الذوق العربي السَّليم.

1- جواد علي، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، الطبعة الرابعة، 1422هـ/ 2001م، ج17، 248، وينظر: محمد بن فتوح الحميدي، الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق: الدكتور: علي حسين البواب، دار ابن حزم، لبنان، الطبعة الثانية، 1423هـ-2002م، ج4، ص99.

2- حسان بن ثابت الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، ج1، ص20.

3- طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب- من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، ج1، ص28.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

الأحاديث النبوية

- أبوبكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، دلائل الإعجاز، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة، 1986م، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر.
- أحمد مطلوب، النقد البلاغي، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد38، ج2 و3، 1987م، ص200 و201.
- إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار، المعجم الوسيط،: دار الدعوة- القاهرة، تحقيق: مجمع اللغة العربية، ج2.
- الأسود حسين، أصول العلاقة بين البلاغة والنقد القديم حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد81، ج1، السنة 2007م.
- جواد علي، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، الطبعة الرابعة، 1422هـ/ 2001م، ج17.
- حسان بن ثابت الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، شَرَحَهُ وَقَدَّمَ لَه الأستاذ: عبد أ علي مهنا، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، 1994م.
- حَمْدُو طَمَّاسْ- ديوان الخنساء، شَرَحَ معانيه ومفرداته، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 2004م، ج1.
- زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع بن مرّة بن عوف بن سعد، الذبياني الغطفاني (605 م)، ديوان النابغة الذبياني، (بدون طبعة)، ج1.
- طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة- 1937م، ج1.
- علقمة الفحل، علقمة بن عبدة بن النعمان بن ناشرة بن قيس، شاعر جاهلي من بني تميم، ديوان علقمة الفحل، (بدون طبعة) ج1.
- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر– بيروت، الطبعة الثانية، ج24.
- محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد (المصطلح والنشأة والتجديد)، مؤسسة الانتشار العربي- بيروت، الطبعة الأولى، 2006م، ج1.
- محمد الطاهر بن عاشور، موجز البلاغة، المكتبة العلمية- تونوس، الطبعة الأولى، 1932م.
- محمد بن فتوح الحميدي، الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق: الدكتور: علي حسين البواب، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثانية، 1423هـ-2002م، ج4.
- أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، لباب الآداب، تحقيق: أحمد حسن لبج، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ -1997م، ج1.
- مصطفى عبد الرحمن إبراهيم، في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة- القاهرة، 1998م، ج1.
- نبيل رشاد سعيد، مدخل إلى علم الجمال، دار الهادي- بيروت، الطبعة الأولى، 1422ه- 2001م، ج1.

❑ أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1987م.